دراسات إفريقية

مركز البحوث والترجمة

مجلة بحوث نصف سنوية

في هذا العدد :

نحو استراتيجية جديدة للتعليم الإسلامي في إفريقيا
الدكتور عبد الرحمن أحمد عثمان

حول تاريخ الأديان في السودان
البروفسير عون الشريف قاسم

البجا في شرق السودان
الدكتور إدريس سالم الحسن

الطريقة التجانية (الدين والمجتمع) بالإنجليزية
الدكتور عوض السيد الكرسني

عوامل الوحدة بين دول القرن الإفريقي (بالإنجليزية)
البروفسير محمد هاشم عوض

حوار الإسلام والغرب (بالفرنسية)
الدكتور حسن عبد الله الترابي

العدد الحادى عشر يونيو ١٩٩٤م محرم ١٤١٥هـ

دراســـات إفـريقيـة

مجلة دراسات نصف سنوية يصدرها مركز البحوث والترجمة
بجامعة إفريقيا العالمية
ص . ب : ٢٤٦٩ *الخرطوم - السودان*

المقالات والبحوث المنشورة تعبر عن اراء كاتبيها ولاتعبر بالضرورة
عن آراء تتبناها هيئة التحرير أو جامعة إفريقيا العالمية

الطابعون :
دار المركز الإسلامى الإفريقى للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة افتتاحية

هذا هو العدد الحادي عشر من مجلتك – عزيزي القارىء – دراسات إفريقية استقطبنا لكم فيها أقلاماً جديدة ، وحافظنا قدر جهدنا على كتابها من رواد الحركة العلمية والفكرية في السودان . ولئن تخصص عددنا العاشر في موضوع علاقات إفريقيا بالعالم الخارجي والعلاقات البينية فإن هذا العدد تميز بالشمول والتنوع . إذ غطت موضوعاته حقول المجلة الرئيسية ، مثل التعليم الإسلامي في إفريقيا ، واللغة العربية وعلاقتها بالشعوب واللغات الإفريقية ، وانتشار الإسلام بالقارة .

كما اشتمل على دراسات تميزت بالجدة والطرافة فيطالع القارىء فيه : دراسة مقارنة بين قطاعي عشش فلاته بالخرطوم ، وكبيرا بنيروبي ، كما ينطوي على دراسة حول واقع قبائل البجا في شرق السودان ، وفيه نطالع دراسة حول دور الدين في التكامل والتقسيم بإفريقيا . وبالعدد موضوعات أخري باللغتين الإنجليزية والفرنسية دارت في مجملها حول الحوار بين الإسلام والغرب وقضايا القرن الإفريقي والطرق الصوفية .

ونأمل أن يجد القارىء في هذا العدد ، ما يضيف جديداً لمعرفته بإفريقيا . كما نأمل أن يجد فيه طلاب الجامعات والمعاهد العليا مرجعاً موثوقاً باللغة العربية متخصصاً في الدراسات الإنسانية واللسانية الإفريقية سيما وقد كان عالم الدراسات الإفريقية – وإلي وقت قريب – حكراً على علماء من خارج القارة ينظرون إليها بمنظار خلفياتهم وموروثاتهم وخلفيات مجتمعاتهم ويجيء ما يكتبون تعبيراً عن رؤيتهم التي تختلف عن رؤى أبناء القارة

ويسعد هيئة التحرير أن تزجي أصدق آيات التقدير والعرفان للمساهمين في هذا العدد من العلماء والباحثين . كما تناشد القراء الفضلاء المشاركة بالنصح والتوجيه بما يعين على تجويد الأداء للإرتقاء بالمادة والإتقان في الإخراج .

وعلى الله قصد السبيل

هيئة التحرير

البجا في شرق السودان

د. إدريس سالم الحسن *

مقدمة :

ينصرف تعبير منطقة البحرالأحمر فى السودان للرقعة التىّ تقع بين خطى العرض ١٤ – ٢٢ شمالا وخطي الطول ٢٤ و٣٨ شرقا أى المنطقة التى تتاخم الحدود المصرية شمالاً والنيل غربا ونهر أتبرا فى الجنوب الغربى وحدود كسلا مع الحدود الإريترية والإثيوبية فى الجنوب الشرقى والبحر الاحمر شرقا . وهذه المنطقة تتفاوت فيها التضاريس بين سلسلة الجبال ذات الارتفاع المتوسط ثم تليها أراض منبسطة تتخللها تركيبات صخرية إلى جهة النيل والمنطقة الجنوبية . وبينما ينسحب على الجهة الشمالية والشمالية الغربية وصف الصحراوية نجد أن مناطق دلتا القاش وطوكر أراض زراعية خصبة وتتفاوت الأمطار موسما وكثرة تبعا لهذه التضاريس ومع أن المناطق الشمالية قد لاتستقبل أكثر من ٥ ملمترات فى العام فى المتوسط ، تكثر فى المنطقة الجنوبية إلى مابعد المائتى ملميتر فى العام . وفى حين أن المناطق الساحلية تهطل أمطارها شتاء في شهرى نوفمبر وديسمبر ، تهطل أمطار الوسط فى الصيف في يونيو ويوليو . أما منطقة أركويت حيث الجبال القاسمة لخط الأمطار فإنها تستقبل أمطاراً شتوية وصيفية كذلك وتتسرب معظم هذه الأمطار فى الخيران والوديان فى انحدار شديد مما يقلل الاستفادة منها بيد أنه توجد مياه جوفيه مستقرة على الصخور القرانيتية فى بعض الأماكن وتشكل المياه عموما عقبة رئيسية للاستفادة القصوى من طاقات الإنسان والحيوان وتعوق المشروعات التنموية عموما وخاصة الزراعية منها (١) .

يتكون الغطاء النباتى للمنطقة من أشجار وشجيرات وأعشاب وحشائش متنوعة تختلف

---

* أستاذ علم الاجتماع بكلية الاقتصاد والدراسات الاجتماعية جامعة الخرطوم .

من منطقة إلى أخرى حسب الإرتفاع وكمية الأمطار .[٢] وتكون هذه النباتات جزءاً من النظام البيئي والتوازن الإيكولوجي وبالإضافة للاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية للسكان فهناك أشجار وشجيرات الأراك التي تثبت التربة وتستخدمها الحيوانات المختلفة كما يستخدمها الإنسان كنبات طبي ولنظافة الأسنان ويعود إليه منها عائد اقتصادي ببيعها كمساويك لمن يعبرون الطريق .

وهناك أشجار الدوم والتي تستخدم فى المنازل وعمل القفاف والبروش والحبال ، كما أن لها أهمية اجتماعية إذ تستخدم في بعض الطقوس . وهناك الصبار ، الزقوم والعشر والطرفة والتنضب والسدر والسلم والهجليج والمرخ ، والتمام والسنامكا والمحريب والأخيران لهما أهمية طبية كبري خاصة فيما يتعلق بأمراض الباطن ، ومن البديهي أن توزيعها يتوقف على عوامل مختلفة ولكن من أهمها توافر المياه بكل أنواعها وليس كمية الأمطار فقط وعلى طبيعة التربة وأخيرا هناك المراعي بأنواعها وكذلك الزراعة ومن أهم منتجاتها الذرة والعلف والدخن .

وتزخر من غير شك المنطقة بالعديد من أنواع الطيور والحيوانات والأسماك وغيرها من الكائنات . وهناك من الأدلة التاريخية ما يشير إلي وجود حيوانات كبيرة كالأفيال ولكن ماهو موجود الآن لا يعدو الغزلان والأرانب والقرود وبعض الحيوانات الصغيرة الأخري . هذا إلي جانب المستأنس من الجمال والأبقار والضأن والماعز وقليل من الطيور الداجنة .

ومنذ القدم كان وادي العلاقي وما يجاوره مكانا للتنقيب عن الذهب والأحجار الكريمة . كما أن المنطقة الآن لا تزال موقعا لاستخراج الذهب . ويوجد كذلك من المعادن الحديد والنحاس والتنجستون هذا إلي جانب الرخام والحجر الجيري . ولا تشكل هذه المعادن أهمية اقتصادية للمنطقة سوى الذهب والملح الذي يتحصل عليه إما بالتعدين أو باستخلاصه بتبخير ماء البحر . ومن المعالم الأيكولجية البارزة البحر الأحمر وما يشتمل عليه من حيوانات وأسماك وأحياء مائية بالإضافة إلي الذخائر المعدنية من ذهب وفضة

وبترول وغيرها كما أن أهميته الاستراتيجية والسياحية ضخمة جدا لما يحويه من شعب مرجانية ومخلوقات مقتصرة عليه .

وتعتبر البجا المجموعة السكانية الرئيسية التي تسكن المنطقة ، وهي ترجع في ظهور أصولها القديمة إلي أكثر من ألفي عام مع الأخذ في الاعتبار تغيّر الأسماء وتداخل المجموعات السكانية وحركاتها وتنقلاتها خلال الحقب التاريخية المختلفة . وتتكون المجموعات البجاوية الآن من العبابدة في الحدود المصرية يليهم البشاريون وينقسمون إلي بشاري أم ناجي إلي جهة أتبرا ، ثم الهدندوة كأكبر مجموعات البجا ويجاورهم إلي الشمال الشرقي قليلا الأمرأر ولا يحسب البني عامر في المنطقة الجنوبية من البجا ، ثم هناك المجموعات الأخري التي تحسب ضمن المجموعة البجاوية وهم الأشراف والأرتيقة أكبر مجموعاتهم العتمن والكميلاب . ثم تنقسم هذه المجموعات إلي مجموعات فرعية (أي بطون) وهي (ديواب) وأخيرا الحصة ، وتوجد كذلك مجموعات غير بجاوية من خارج المنطقة نزحت بصورة أساسية للمدن وعملت بالتجارة ، ودواوين الحكومة بصفة أساسية وهؤلاء غالبيتهم من وسط وشمال السودان من جعليين وشايقية ودناقلة ومحس وغيرهم . كما أن المدن الساحلية كبورتسودان وسواكن احتضنت مجموعات يمنية ومصرية وتركية وهندية وإغريقية وغيرها كانوا في معظم الأحيان يتعاملون بالتجارة ، وفي حالة اليمنيين والمصريين اشتغلوا بالتدريس والقضاء جنبا إلي جنب مع التجارة . كما توجد مجموعات صغيرة من داخل السودان الغربي ومن غرب إفريقيا عملوا بالزراعة وأعمال هامشية أخري . وآخر المجموعات هجرة من الناحية التاريخية هي مجموعة الرشايدة والتي هاجرت منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريبا من الجزيرة العربية لأسباب معيشية وكانوا سابقا في المنطقة المحصورة شمال منطقة بورتسودان ولكنهم الآن ينتشرون في المناطق الساحلية ونزحوا جنوبا واستقرت أعداد كبيرة منهم على شواطيء نهر أتبرا وبالقرب من مشروع القربة ، وهم يعملون برعي الجمال والتجارة والزراعة والتهريب بين السودان والسعودية . ولهم مقدرة الحركة السريعة من خلال السيارات الحديثة التي يمتلكونها مما مكنهم من استغلال الأرض والبيئة أكثر من المجموعات البجاوية الأخري . وهذه المجموعة لا تزال

تحتفظ بخصائصها الثقافية والحضارية وهي منغلقة على نفسها اجتماعيا ولكنها منفتحة اقتصاديا . فهي لا تتزاوج مع غيرها وتحتفظ بلهجتها الأصلية وطريقة لبسهم ومعيشتهم ، ولكنهم في ذات الوقت تمتد علاقاتهم التجارية في مناطق واسعة داخل وخارج السودان

وتختلف المجموعات البجاوية بعضها عن بعض في عاداتها وطبائعها وفيما تحترفه من مهن ، لكنه أيضا يوجد شيء كثير من التشابه . فالغالب على هذه المجموعات الأصل الكوشي (الحامي) وتتكلم التبداوي (فيما عدا البني عامر) وهي لغة كوشية ويمارسون الرعي والبداوة وهم أهل جمال في الشمال وجمال وضأن وماعز في الوسط وأهل أبقار في الجنوب ويمارسون مع الرعي الزراعة في الوديان والخيران وتوجد الزراعة في منطقة طوكر والقاش ، وغالب محاصيلهم الذرة والدخن ، بالإضافة إلي المحاصيل النقدية الأخري كالقطن ، وكما سنري فإنه نتيجة للجفاف والتصحر ، أصبحوا يهاجرون إلي المدن الرئيسية وخاصة بورتسودان للعمل كأجراء في الميناء أو امتهان أعمال هامشية تتناسب مع مستوي تعليمهم البسيط .

ومنذ أن قامت هذه المجموعات البجاوية وجيرانهم من السكان الأصليين في هذه المناطق منذ الآف السنين احتكوا بكثير من العناصر الخارجية اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا في علاقات تأرجحت بين تعاون وصراع كان بعضه حروبا مريرة ، كما أنهم تصاهروا واستوعبوا كثيرا من العناصر التي جاءت بغرض استخراج المعادن والعمل بالتجارة والزراعة . ولكن ورغم ذلك تبقي هناك خاصية مميزة للمجموعات البجاوية وهي احتفاظها بسماتها الأساسية في مناحي الثقافة عموما والتنظيم الاجتماعي ، وسيكون لهذا أثره في التعامل مع البيئة ، كما سنوضح لاحقا ، في حالات قست فيها عليهم الطبيعة بما جلبته من قحط ، والمشكل هنا كيف أن مثل هذه المنطقة بما لها من تاريخ طويل ، وتنوع في الجماعات ، واحتكاك بحضارات وثقافات عديدة بما لها من مدخرات ومصادر طبيعية ضخمة ومتنوعة لا تستطيع أن تتفاعل مع تقلبات البيئة .

عرفت منطقة البحر من قبل علماء الآثار بأنها قديما كانت إحدي أولى المناطق من

حيث انتاج أنواع الغذاء المعروفة للإنسانية ورغم ذلك شهدت هذه المنطقة في السنوات الأخيرة نقصاً كبيراً في الغذاء (٩) .

إن ظاهرة القحط والمحل بمنطقة البحر الأحمر ظاهرة ضاربة في القدم ، وقد تكررت في تاريخنا المعاصر عدة مرات ، فالمعروف أن الأمطارغير مضمونة الكمية والمواعيد وتوزيعها غير متساو ولذلك تتعاقب سنوات متتابعة ذات أمطار كثيرة في أماكن متفرقة ، وقد تقل في سنوات وينتج من هذا كله أن المحل والجفاف قد يكون عاما في سنوات ومحليا مقتصرا على مناطق بعينها في أحايين أخري .

وفي التاريخ المسجل والمروي عن المنطقة تبرز سنة ١٨٨٩م - سنة ١٣٠٦ هجرية (ما يعرف بسنة ستة) حيث ضرب الجفاف معظم أجزاء السودان وإثيوبيا ، وقد تأثرت منطقة البحر الأحمر بوجه خاص بهذه الكارثة حيث تضافرت الظروف البيئية مع الأوضاع السياسية فانتشرت المجاعة والأمراض الفتاكة فقضت على الكثير من الناس والحيوانات مما يعد بالملايين (١٠) وفي سنة ١٩٠٤م حدث محل ومجاعة جزئية في منطقة جبل (إلبا) وفي جبل عتباي في سنة ١٩١٠ م ثم توالت السنوات الصعبة وسنوات ١٩٢٥م - ١٩٢٧م وهي ما يعرف عندهم بسنة (الكرباج) حيث استخدم (السوط) لتفريق جموع البجا الذين تجمهروا في المكاتب الإدارية وخاصة منطقة عتباي أيضا ، وفي سنة ١٩٢٩م شهدت منطقة الأمرأر شحا في المحصول ونقصا في الحيوانات نتيجة للجفاف في تلك السنة ، أما في سنة ١٩٤٠م فقد عم الجفاف مناطق عديدة من البحر الأحمر وسميت تلك المجاعة بالفولية نسبة لتوزيع الفول المصري لهم بدلا عن الذرة . ولقد حدثت في منطقة سنكات مجاعة سنة ١٩٥٠ - ١٩٥١م عرفت بـ (سرار هوهوكيا أي النجم المذنب) أما الفترة بين سنة ١٩٥٩م - ١٩٦٢م فتسمي محليا بـ (الأمريكاني) حيث تم توزيع الإغاثة الأمريكية لتدارك آثار مجاعة تلك السنوات ، أما السنوات ١٩٦٩ -١٩٧٢م فتعرف بالكيلويت أي الكيلو ، إذ أن الذرة وزعت لهم بالكيلو لكل عائلة وآخر المجاعات الكبري في المنطقة حدثت في فترة منتصف الثمانينات وهي ما تعرف عندهم بالخواجة أو أدروب إذ أن كثيرا من المنظمات الأجنبية التي تعمل في الإغاثة كان يديرها الأجانب البيض .

أثرت كل تلك السنوات الصعبة تأثيراً مباشراً وغير مباشر علي سكان منطقة البحر الأحمر عموما والهدندوة بصفة خاصة فيما يتعلق بحياتهم وحيواناتهم وبيئتهم . إذ تتوقف حياة البجا الرعاة على توافر الذرة واللبن (أي أعداد وصحة الحيوانات بمعني آخر) وهناك ارتباط وثيق بين الأحوال البيئية ونجاح محصول الذرة وتوافرها وأسعارها وتوافر الحيوانات ، فكلما ساءت الأحوال وقلت الذرة اضطر البجا إلي بيع حيواناتهم بأرخص الأسعار للحصول على الذرة بأعلي الأسعار مما يزيد في سوء حالتهم العامة حيث أنهم يفقدون حيواناتهم في زمن المحل بصورة متسارعة مما يقلل من كمية اللبن عندهم ويحتاجون لمزيد من الذرة [١١] وتقل عندهم المقدرة النقدية لشراء الذرة لأن حيواناتهم الهالكة لا تجد أسعارا عالية عند جلبها للسوق .

وتراوحت الاستجابة لهذه الظروف القاسية على مر السنوات بين المساعدة المباشرة من حكومات (ما قبل الاستقلال وما بعده) إلي المنظمات العالمية من خلال الدعم المباشر في شكل ذرة أو مواد غذائية أخري توزع من خلال القنوات الرسمية الإدارية وتقسيمات (الديواب : الوحدة القرابية عند البجا) أو كما ظهر أخيرا من خلال (الخلاوي) التي أنشئت في السنوات الأخيرة كمراكز لتوزيع الإغاثة [١٢] . وتحفل الملفات الإدارية منذ الاستعمار بالتقارير حول كميات الذرة التي جلبت للمنطقة في زمن المجاعات ولأي المناطق ، كما أن تلك التقارير تحوي معلومات ذات قيمة عن جماعات البجا في إطارها التاريخي والاجتماعي المحدد . ومن أوجه الاستجابة كذلك الحركة خارج المنطقة إلي عدة جهات منها الهجرة إلي المدن للاحتماء بالأهل الذين يقطنون هناك إلي حين انجلاء الأمر ، أو البحث عن عمل للارتزاق منه ، كما أن هناك حركة نحو المناطق الجنوبية ، دلتا القاش وطوكر حيث توجد مجموعات من قبيلة البجا تقيم هناك يكون لها أحيانا فائض من الذرة ، وبعض الأماكن لرعي الحيوانات المتبقية التي يجيء بها المغادرون لمناطقهم ، وكذلك هناك مجموعات أخري تتحرك نحو المشاريع الزراعية ومناطق الزراعة في الرهد والقضارف ، هذا وقد تمت بعض المحاولات لإقناع بعضهم بالإقامة في تلك المناطق الزراعية إلاّ أنها في مجملها كانت فاشلة .

أما الذين يقررون البقاء في أماكنهم فانهم يخاطرون بحياتهم إذا لم تصلهم الإغاثة في أماكنهم النائية المتفرقة وذلك لأن كل ما هو متاح لهم هو الأشجار الكبيرة من دوم وسنط وغيرها مما ذكرناه سابقا ، ومن هنا انتشرت فكرة قطع خشب الحريق وبيع الفحم والاستفادة من صنع الحبال والقفاف وسلال السعف وبيع الدوم وقطع أشجار الدوم نفسها

وخشب الحريق والفحم والدوم على وجه الخصوص وجدت لها سوقا رائجة في المدن المتزايدة السكان والاحتياج للطاقة ، ولكن هذه المجموعات الباقية ذات أعداد صغيرة نسبياً مما أدي إلي ظاهرة تناقص الحياة الرعوية في المنطقة بصورة واضحة كما أظهرت الإحصائيات والدراسات الأخيرة .

ويظهرمن الأسطر الماضية أن التقلبات في الأحوال البيئية ذات تأثير ضخم وكبير على الأفراد من جهة والجماعات على مُستوي التنظيم الاجتماعي وذات تأثير على المستوي الهيكلي العام .غير أن ما يثير الاهتمام بالنسبة للمراقب هو أن الأداء العام للأفراد والجماعات كان يمكن أن يكون أحسن بكثير مما هو عليه وذلك مقارنة ببعض الحالات في مناطق أخري من السودان ، كجماعات الزغاوة مثلاً ،وحسن الأداء هنا مقيسا بالاستخدام الأرشد للبيئة وذلك باستغلال كل الاحتمالات والامكانات والمواردالتي تسمح بها تلك البيئة ، وأيضاً من خلال جعل التنظيم الاجتماعي أكثر مرونة فيما يتعلق بالحركة وأستغلال الموارد وكذلك باختيار استراتيجيات جديدة تتيح مساحات أوسع من التعامل مع البيئات الأخري ودمج العمليات الاجتماعية المحلية في عمليات تقع في إطار أكبر سواء أكان ذلك إقليميا أو قوميا أو خارج الحدود ، والزغاوة مثلا عكس البجا ، يستهلكون كل أنواع الأعشاب والحيوانات القابلة للأكل ، ويترابطون من خلال شبكات اجتماعية واسعة تشمل الزراعة والرى والتجارة داخل المنطقة وخارجها وخارج الحدود فى تشاد وليبيا ومصر علي وجه الخصوص ثم بعد ذلك منطقة الخليج والعراق وهذه المجموعات يربط بينها ويدعمها روح التعاون الإثنى ، ولذلك فإن أثر الجفاف والتصحر وسط الزغاوة ليس بنفس مقدار ما حدث عند الهدندوة ، وسنعرج لاحقا على بعض ما يمكن أن يكون من عوامل هذا الاختلاف ونعزو ذلك إلى الرؤية الثقافية المحلية والتنظيم الاجتماعي فى علاقتها مع إدراك

البيئة والتعامل(١٦)

يتعرض هذا الجزء لأهم الملامح الثقافية البجاوية ويليها كلمات موجزة عن التنظيم الاجتماعى المحلى وما يترتب على ذلك من عمليات اجتماعية فى تداخلها مع البيئة فى سياق الحراك الاجتماعي .

كما ذكرنا آنفا فإن مجموعة البجا من المجموعات القديمة فى المنطقة ترجع بتأريخها إلى أكثر من ألفى سنة وأصلها من المجموعات الرعوية الكوشية ولا يزال كثير من جوانب حياتها متأثرا بتلك الجذور الثقافية الكوشية الرعوية فى كثير من العمليات الاجتماعية على مستوى التنظيم الاجتماعي ، فالطعام الأساسى ما يزال عندهم هو الذرة واللبن مع عدم استساغة الكثير من أوجه النباتات والثمار الموجودة ويمكن أكلها . كما أن الثروة السمكية الهائلة التى ينتجها البحر الأحمر لا يستهلك منها إلا القليل إذ أن الروح الرعوية ، كما نعرف تنفر من طعام البحر والنهر والدواجن وتعده مما يحط من قدرهم الاجتماعي والقبلى. وأنواع الطيور والصيد التى كانت إلى وقت قريب متوافرة بأعداد معقولة ، ففى الثقافة البجاوية يعد كثير منها من المحرمات الاجتماعية أو على الأقل لا تشكل مصدرا غذائيا فى نظرهم وكذلك الأرانب وغيرها من الدواب ، ومع أن الغزلان والأرانب تؤكل فى رحلات الصيد التى ينظمها بعض الأصدقاء ، ولكن هذه تتم فى إطار إظهار المهارة فى الرمى والحركة والاستمتاع أكثر منها كوسيلة للحصول على الطعام ، فليس هناك على سبيل المثال تنظيم قرابى أو نوع آخر من أنواع التنظيم الاجتماعي لاستغلال هذه المصادر النباتية والحيوانية كاستراتيجية لمجابهة ظروف الجفاف والتصحر .

والثقافة الكوشية عموما ، ذات إحساس عميق بالمكانية وهى ذات طبيعة توسعية على حساب المجموعات الأخرى . فاحتياجات الجماعة الرعوية إلى مساحات كبيرة من المراعى تجعلها تنتشر بصورة كبيرة وتمارس الغزو ، وكذلك فإن معظم قيمها تدور حول الشجاعة والفروسية والكرم وليس على امتهان المهن اليدوية وكل ما يرتبط بالإقامة فى مكان واحد . كما أن الثقافة الرعوية ترتكز علي فكرة الشرف ، وخاصة شرف الجماعة ،

والذى يمثله فى أعلى صورة حماية المرأة وحجبها عن كل ما يمكن أن يعرضها للإهانة مما ينسحب سلبا علي شرف الجماعة .

وهذه العناصر الثلاثة الأساسية في ثقافة البجا والمتمثلة فى الإحساس بالعزة والأنفة والمكانية (الحمى) والشرف عامة ، وفى العلاقة بالمرأة على وجه الخصوص ، تؤثر على التنظيم الإجتماعى وما ينتج عنه من عمليات اجتماعية . (١٧)

إن أهم عناصر التنظيم الاجتماعى عند البجا هى الإقامة الأمومية والتى هى فى الغالب مستمدة من التنظيم الأمومى ، وهو اتباع الخط القرابى للأم وليس الأب فى الواجبات والحقوق الاجتماعية ومن ضمنها الإرث ، وهذا ما أشار إليه مؤرخو العرب فى القرون الوسطى الإسلامية ، ولكن بعد انتشار الإسلام فى المنطقة وانتقال نظام القرابة والإرث إلي الخط الأبوى (١٨) أصبح من الملاحظ أن كثيرا من أقسام البجا وخاصة الهدندوة ترجع أصولها إلى أجداد عرب ومسلمين كانوا قد تزوجوا من نساء بجاويات ، فمن ذلك أن أقاصيص الهدندوة تحكى عن جدهم محمد المبارك باركوين الذى تزوج من جدتهم هداة ، وكذلك الشارعاب والإتمن والقرعيب والأمرأر ولكن رغم ذلك فإن كل هؤلاء القادمين من خارج المنطقة قد ذابوا فى الثقافة البجاوية مسكنا ولغة وتطبعوا بطباع أهلها وآخر هذه الأمثلة مجموعة المجاذيب (١٩) وهذا الجانب من التنظيم الاجتماعي يكشف لنا حقيقة مدهشة وهى أن سكان هذه المنطقة رغم اختلاطهم بأجناس ومجموعات غريبة منذ آلاف السنين ودخلوا فى علاقات حروب وتجارة ومصاهرة وخلافها فإنهم ظلوا على سمات تنظيمهم الاجتماعى في ملامحه الأساسية .

ومن المعالم الأخري للتنظيم الاجتماعي تفرعاتهم القبلية على المستوى العالى إلي مستوى الحصة ، إن الوحدة القبلية للتعامل هى الـ (ديواب) فهى التى تملك الأرض وهى التي تتحدث باسم أعضائها فى حالات الجرائم والشرف وكل ما يمثلها مجموعات الـ (ديواب) الأخري. كما أن الزواج لا يتم بين المجموعات الأخرى للديواب إلا إذا حدث انصهار بينها ، غير أن ال (ديواب) ليست مجموعة متحدة للعمل أو العمليات الاجتماعية

الأخرى غير التى ذكرناها . ولذلك فإن مسألة كتقسيم الإغاثة فشلت عندما انضبطت مهمتها ونظمت على أساس ال (ديواب).

أما العلاقة بين الجنسين والتى تحكمها قيمة الشرف فإنها مترجمة فى عالم الواقع فى انحصار المرأة كزوجة وأم وأخت فى عالمها الخاص محمية من الاشتراك والظهور فى عالم الحياة العامة حيث الرجال عموماً والغرباء خصوصاً وعملها ينحصر فى جلب الماء وبعض المهام المنزلية الأخرى وغيرها من الأغراض التى لا تبعدها عن مسكنها بعيداً ولأوقات طويلة، كما أن الرجل غير مسموح له عرفياً بالبقاء فى عالم النساء نهاراً (٢٢) وبذلك فإن اشتراك الجنسين فى عمليات انتاجية مشتركة من الأمور المستبعدة فالمرأة فى منزلها ومع أطفالها تعد الطعام وترعى بيتها، أما الرجل فهو المسئول عن العائلة بمدها بما تحتاجه من خلال كده وجهده فى الزراعة والرعى أو بالعمل فى المدن أو غيرها مما يجلب له نقوداً.

وفى خصائص التنظيم الاجتماعى عند البجا علاقتهم بالغرباء من خلال ملكية الأرض وكل من فى أرضهم يعتبر ضيفاً عليهم طالما تمسك بواجبات الضيافة فعليهم واجبات الحماية والإكرام بالمرعى والماء واستخدام المصادر المختلفة ولكن لا يسمح له خرق هذه العلاقة بأن يحفر بئراً مثلاً أو يقطع شجرة مما يعد حقوقاً أصلية للمالكين وعليه أيضاً أن يدفع (قودب) عن الأراضى الزراعية التى يسمح له بزراعتها.

ونخلص من هذا العرض الموجز إلي أن البجا لا تؤهلهم السمات الأساسية للثقافة ولا التنظيم الاجتماعى للاستغلال الأمثل لبيئتهم، بل العكس نجد أن سمة كالكرم مثلا وحسن استقبال الغرباء الملتجئين إليهم يضع ضغوطاً على بيئتهم زيادة على عدم استغلالهم الأمثل لها.

جاء ذكر تفاصيل كثيرة خلصت إلى أن ثقافة الهدندوة فيها التعاون كقيمة اجتماعية من سقاية الإبل، والبحث عن الماشية المفقودة .... إلخ ولكن كل هذه تأتى من صميمهم وتساند بقيم الشجاعة وروح المحارب أكثر من كونها نابعة من شيء آخر (٢٣).

فى هذا الجزء الأخير نحاول أن نربط ما سبق بالحركة عند البجا بين القطاعات والأماكن الجغرافية، ونقسم ذلك إلى عدة أنواع :-

أ - التحرك المستمر واليومى فى مناطق الرعى عندما تكون المراعى جيدة وتتوقف المسافة على الموقع عما إذا كانت فى الشمال أو الوسط أو الجنوب، وعلى نوع الحيوانات التى تحكم سير تلك الحركة ، والمجموعة التى تقوم بالحركة ، فالجمال فى الشمال غير الأغنام فى الوسط غير الأبقار فى الجنوب ، وتعتمد المسافة فى الوسط أيضاً على تتبع تيارات المياه والعشب بين الجبل والسهل .

ب - فى موسم الشتاء تتحرك الأسر بأكملها إلى المناطق الساحلية حيث مرعى (القنب) ثم يرجعون مرة أخرى فى فصل الصيف ويذهبون إلى الغرب كسلا والأتبراوى .

ج - فى الأحوال الطارئة الصعبة، وقبل أن تسوء الأحوال يتحرك الرجال إلى مناطق الإنتاج فى طوكر والقاش حيث أقاربهم ويحاولون الحصول على النقد والذرة أو إلى المدن لنفس الغرض. وفى كلتا الحالتين تكون هذه الحركة موسمية ومؤقتة، ويكونو ن على اتصال بمناطقهم الأصلية ومجموعاتهم القبلية .

د - فى حالات الجفاف والتصحر وعندما تبدأ الحيوانات فى الموت الجماعى وترتفع أسعار الذرة إلى الحد الذى يهدد أرواح الناس فإنهم يرحلون بأسرهم إلى قرب الشارع الرئيسى للأسفلت الذى يربط بين بورتسودان والخرطوم وإلى المدن الرئيسية فى انتظار الإغاثة والعون من جهات خارج المنطقة، غير أن أماكن انتقالهم هذه تكون فى إطار حدود منطقة البحر الأحمر. وقد ينتج من هذه إقامة دائمة فى المناطق العشوائية بتلك المدن تحت ظروف اجتماعية واقتصادية قاهرة (٢٤).

ونلاحظ فى هذه الأنواع من الحركة ما يلى : أنها فى معظمها داخل منطقة البحر الأحمر، أما بين المناطق الرعوية نفسها أو بين مناطق الرعى والزراعة حيث يقيم بعض أهلهم فى مناطق كمشروع القاش وطوكر أو حركة مؤقتة أو هجرة دائمة للمدن. وكل هذه المناطق وما يشملها من نشاطات تعتبر من صميم مناطق البجا ومن نشاطاتهم التقليدية،

أى أنهم لم يغيروا إلى الآن بصورة كبيرة سبل استغلالهم لبيئتهم من جهة كما أنهم لم يتوسعوا فى مناطق مجاورة ذات فرص مختلفة ، كما فى حالة توطينهم فى مشاريع زراعية فى كساب مثلا. والملاحظة الأخرى أن هذه الحركة المحدودة فى مداها الجغرافى وفى إطار التنوع الاجتماعى والأقتصادى تتم بدون استغلال كامل لكل المصادر المتاحة لهم فعلا.

وخلاصة القول نذكر أن ما رمت إليه هذه المقالة هو أن الرؤية المحلية للبجا تجاه بيئتهم بما فيها من مصادر طبيعية واقتصادية وبشرية تتمركز فى قيم ثقافية أدت إلى عدم الاستفادة القصوى مما هو متاح من تلك المصادر وهى بذلك قد أسهمت فى نوعية الحركة التى يمارسها البجا من حيث محدوديتها الجغرافية والاجتماعية والمناطق الزراعية جنوباً كان يمكن أن تؤثر فى طبيعة حركتهم كما حدث للنوبيين مثلاً أو كما هو الحال عند الزغاوة .

الحواشى :

١- في مسألة توفر وكفاية المياه انظر :-

El- Toum, M. A. ; The Climate of the Red Sea Region of the Sudan: An Outline. RESAP Technical Paper No. 1, 1991

وانظر أيضاً :-

Musa S. B. ; Rainfall in the Red Sea Province: A paper presented to RESAP second Anual Workshop, Khartoum, March 1990.

٢ - كمسح عام للغطاء النباتى فى أقليم البحر الأحمر، الأسماء المحلية لهذه النباتات واستعمالاتها انظر

El- Awad, A : The Flora of the Red Sea Area ; A paper presented to RESAP Second Anual Workshop, March 1990.

٣- تضمنت التقارير أنه فى منتصف القرن التاسع عشر، كانت منطقة البحر الأحمر تعج بالأفيال وبعض الحيوانات الضخمة التى يصطادها الأهالى هنالك . لمزيد من المعلومات انظر : محمد صالح ضرار : تاريخ سواكن والبحر الأحمر ١٩٨٨، الدار السودانية للكتب ص : ٧٧- ٧٨ .

٤- Hasan, Y, F, : The Arabs and the Sudan, Edinbrgh University Press, 1967.

٥ - Shadad, M. Z. : Mineral Resources of the Red Sea Province and Their Role in Development, Apaper presented to *RESAP* third workshop October 1990

٦ - لمزيد من التفاصيل عن تاريخ ومجموعات البجا، انظر : محمد أدروب أوهاج : من تأريخ البجا ١٩٨٦ - دار جامعة الخرطوم للنشر ص : ١١ .

٧- محمد صالح كشف كيف أن رموز الهوية (استخدام التقاليد بوعى ودون وعي للهوية الذاتية) تسهل عملية الوصول للموارد الاقتصادية والسياسية ص : ١٥٩ .

Salih, M. : " Symblic Identification among the Hadandwa of Eastern Sudan" : Palsson, G. (ed); From Water to World-Making, The Scandinavian Institute of African Studies, Uppsala, 1990.

٨ - لمزيد من المعرفة بالرشايدة ومجموعات غير بجاوية أخرى ارجع لصفحة ٤ - ٨ فى:

Ahmed, A. G. : Pastoral Mangement and Herd Dynamics in the Red Sea-Province, A report presented to RESAP, Khartoum 1991

٩- محاضرة قدمها بروفيسور Ehert فى مركز الدراسات الإسلامية ببرجن ٢٥ مايو ١٩٩١ عن اللغة الكوشية بعنوان :-

Language as Historical Evidence.

حيث قال إن اللغة الكوشية تضم كلمات وجملا تعتبر موشراً لوجود وممارسة الزراعة بمنطقة البحر الأحمر والمناطق الأخرى فى الشرق الأوسط.

١٠- عن تأريخ الجفاف والمجاعة بمنطقة البحر الأحمر ارجع إلى :-

Dahl; G. :" the Bega of the Sudan and the Famine of the 1984-1986" AMBIO vol. 20 No. 5. 1991 P. 189.

El - Harbi, M. and Omer M. O. : Beiga Traditional Methods of Famine Prediction and Response Strategies, A Paper presented to RESAP third Workshop, October, 1990.

انظر أيضاً :-

Hjort, A. and Dahl, G. : Responsible Man : the atman Biega of the northern sudan , Stockholm Stockhlm in social Anthropology, 1991 P. 152 - 62

١١- لمزيد من المعلومات حول العلاقة بين أعداد الماشية وأسعارها وأسعار الذرة في ظروف الجفاف راجع :-

The Red Sea Province, RESAP Occasional Paper No . 3 1990 . وأيضا

راجع :-

Ahmed , A . G . et . al ,

مصدر سابق ص ٦٧ - ٧٣ .

١٢- لمعرفة أهمية الخلوة (مدارس القرآن) في توزيع الإغاثة وبرء ما ترتب على الجفاف راجع :-

El - Hassan ,I . s . : Religions Institution at Work : The Role of the Khalwa during the Drought in the Red Sea Area , RESAP Technical Paper No . 8 ,1991.

(١٣) Bakhit, A.M., The Highland Hadandowa and Their Recent Migration in : Ibrahim F..and Ruppert H. (ed) , Rural -Urban Migration and Identity Change : Case Studies from the Sudan , Bayrut , 1998 .

(١٤) Abusin , M . E . : Urban Process and Enviroment Change in the

Red Sea Province ; Apaper presnted to RESAP third Anual Workshop , October 1990 , P . 25 - 28 .

Ct . Tubiana , M . , and Tubiana , J . . The zaghowa from an Ecol-(١٥) gical pespective, Rotterdam 1974 .

١٦- يقول شريف حرير :-

من البديهي القول أن حياة البداوة عند البجا والتي عاشت واستمرت لملايين السنين تعكس ثبات و استمرارية هذا الوضع .

Harir , Sh . : The Red Sea , Key Problems and Multi - Disiplinary Problems : In the Red Sea Area Project , A resarch propasal , Centre For Development Studies , University of Bergen , 1987, P. 5 .

١٧- مصدر سابق ، ص ٨٣

Hassan , V. F.

١٨-لمزيد من التفاصيل عن قضايا الجنس ارجع لـ :-

١٩- Vagenes V. : Women Going Public : Social Change and Gender Roles in the Red Sea Hills , Sudan . Ma Thesis , Dept of Geography , University of Bergen , 1990 , chapter 6 and 7 .

٢٠- رغم أن يوسف فضل حسن شرح طريقة ذوبان المجموعات العربية الوافدة في ثقافة الهدندوة بقوله : عروبة (الوافدين) لم تكن بالقوة والحجم الكافي لتحويل الهدندوة لناطقين بالعربية والعكس هو الصحيح حيث نجح البجا في كل الأوقات في امتصاص تلك المجموعات الوافدة وإدخالها في ثقافتهم (تبنوا في النهاية العادات واللغة أو اللهجة البجاوية) .

٢١- مصدر سابق أنظر ص ١١٩

Mohmed Salih

٢٢- يقول حسن عبد العاطي :- إن مدينة سنكات جذبت معظم السكان الذين تأثروا بالجفاف أثناء سنوات المجاعة أوائل الثمانينات . وبالتالي أخذت الهجرة إلي سنكات شكل الاستقرار الدائم .

Ati , H . A . : The Development Impact of the Small Town in Regions Under Conditions of Enviromental Stress , the Case of Sinkat Town , Eastern Sudan .

مراجع بالعربية :-

١- محمد صالح ضرار : ١٩٨٨ تاريخ سواكن والبحر الأحمر ، الدار السودانية للكتب .

٢ – محمد أدروب أوهاج : ١٩٨٦ من تاريخ البجا ، دار جامعة الخرطوم للنشر .

٣ – نعوم شقير : ١٩٦٧ جغرافية وتاريخ السودان ، دار الثقافة ، بيروت .

بالإنجليزية :–

1. Ahmed ,Al gaffar et al 1991 Pastoral Mangement and Herd Dynamics in the Red SeaProvince , Sudan (Unpublished report).

2. Haalland , G 1990 , Report on Mission to Derudeb (unpublished report submitted to Norcross) .

3. Hassan , V. F . 1963, The Penetration of Islam in the Eastern Sudan SNR vol . 44.

4. Milne, J. 1976, The changing pattern of mobility and migration M. Phil thesis , SOAS .

5. Morton , J . F. Fre , Z 1986 , Red Sea Province and the Beja, a Preliminary report for Oxford (unpublished).